السرد الرحلي

من أدب الرحلة إلى الاستطلاع الصحفي المكتوب

Arabic Travel Narrative *From Travel Literature to Written Reportage*

د. خليفة قعيد *،

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي،

hhalifagaid39@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021.09.04

تاريخ القبول: 2021.09.04

تاريخ النشر: 2022.03.31

Ex PROFESSO

المجلد 07، الرقم 01، السنة2022

ملخص

يشتمل السرد الرحلي العربي أو ما يسمى بأدب الرحلة على علوم ومعارف شتى مثل التاريخ والجغرافيا والمجتمع والأنثروبولوجيا والأدب والطبيعة وغيرها. وكان الرحالة يسرد ويصف في كتاباته جميع ملاحظاته من خلال رحلاته. لكن العديد من الباحثين العرب مازالوا يرون أن السرد الرحلي العربي انطفأ من الوجود. ترصد هذه الدراسة أهم المحطات الأدبية والمسارات التاريخية للسرد الرحلي لدى العرب والأجانب، وخلصت إلى أن السرد الرحلي لم يندثر، بل انتقل إلى جنس الإعلام وأصبح هو الاستطلاع الصحفي المكتوب.

الكلمات المفتاحيّة: السرد الرحلي، الرحالة، الأدب، الاستطلاع الصحفي، الصحافي

Abstract :

The Arabic Travel Narrative or the so-called Travel Literature includes various sciences and knowledge such as history, geography, society, anthropology, literature, nature and others. The traveler used to narrate and describe in his writings all his observations through his travels. But many Arab researchers still see that the Arabic Narrative ceased to exist. This study traces the most important literary stations and historical paths of the Travel Narrative among Arabs and foreigners. It concluded that the Travel Narrative was not extinguished, but rather moved to the media genre and became the written Reportage

Keywords : Travel Narrative ; Traveller ; Literature; Reportage; Reporter.

Url de la revue :
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/484

* -المؤلف المراسل.

مقدّمة:

يعتقد الكثير من الباحثين العرب بأن السرد الرحلي أو ما يعرف بأدب الرحلة قد زال من الوجود نظرا لموسوعيته وتعدد موضوعاته من جهة، وعجز المؤلفين في عصرنا عن الإتيان بمثله، باستثناء قلة قليلة جدا من الدارسين العرب رفضوا القول بانطفاء السرد الرحلي، وأشاروا إلى ملامحه في أجناس علوم أخرى مثل الأثنوجرافيا، والرواية الأدبية، والإعلام ولكن دون تقديم دراسات أكاديمية جديّة مقنعة في الموضوع . وإذا كانت مراكز البحث الغربية قد قطعت شوطا كبيرا في دراسة السرد الرحلي واستخراج كنوزه واستخلاص قيمته وتتبع مساراته في علوم اجتماعية وإنسانية أخرى حديثة، فإن العالم العربي يكاد يخلو من هذه المراكز البحثية حول أدب الرحلات.

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في قضية مثارة حاليا في الساحة النقدية الأدبية حول السرد الرحلي أو ما يسمى بأدب الرحلة؛ وذلك من خلال طرح الإشكالية التالية: هل فعلا أن السرد الرحلي قد انطفأ من الوجود باعتباره جنسا أدبيا موسوعيا على غرار فن المقامة وفن الموشحات وغيرهما، أم أنه انتقل إلى جنس معرفي آخر هو الإعلام وتحديدا أحد أنواعه ويتمثل في الاستطلاع الصحفي المكتوب؟ تتبعت هذه الدراسة المسارات التاريخية التطورية للسرد الرحلي لدى العرب والأجانب بغية الوصول إلى معرفة مآلاته وتوزع موضوعاته وأشكاله خصوصا في حقل الإعلام المكتوب في إطار التكامل المعرفي فيما بين علوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الاجتماعية والإنسانية عامة.

I- السرد الرحلي:

يُعرّف السرد الرحلي أو أدب الرحلة بأنه الأدب المكتوب من وحي الانتقال من مكان إلى مكان آخر، أدب الرحلة، أو أدب الرحلات (Littérature de voyages) بالفرنسية، و(Travel litterature) بالإنجليزية، هو "مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته، وفي بلاد مختلفة. وقد يتعرض لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، تسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته، مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد. وقد اشتهر العرب بأدب الرحلات، ومن أهمها رحلة ابن بطوطة (770 هـ)"[1]. وقد أُطلقت عدة تسميات على أدب الرحلات منها: أدب الرحلة، الأدب الجغرافي، الأدب السياحي، أدب المذكرات والسير الذاتية، السرد الرحلي، سرد الرحلة، الأدب الريبورتاجي...الخ.

ومن وجهة نظر السرد، يمكننا تعريف السرد الرحلي أو سرد الرحلة (Récit de Voyage) بأنه السرد القائم على نقل وكيفية نقل القصة الخبرية من طرف مؤلفها السارد، صاحب الرحلة من فضائها الواقعي الحقيقي إلى خطاب سردي مكتوب. ويتمثل متن القصة الخبرية في السرد الرحلي من جملة ما سجله الرحالة من أحداث ومشاهدات ومعايشات ومغامرات وانطباعات وملاحظات، وبمن التقى ومع من تحدث من الشخصيات الحقيقية وغير ذلك مما يلتقطه أثناء أسفاره وتنقلاته في الأماكن والمناطق والبلدان. أما مبنى الرحلة؛ فهو الشكل التعبيري السردي المتمثل في خطاب الرحلة. يرى بعض الباحثين أن الكتابة في أدب الرحلة ليست بالأمر الهيّن حيث "يقتضي التأليف فيها ثقافة واسعة، ودقة في الملاحظة، والتقاط الملامح المعبّرة، ومشاركة في عدد كبير من المعارف لاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ، والجغرافية، والفلسفة، والاجتماع، والأدب. وتفرض الأناقة في تخيّر المفردات، وصياغة العبارات، وتنسيق الفصول"[2]. وتوصف كتابات الرحالة قديما لدى العرب بأنها"» أدب الرحلات» للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أيضا أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه. ونظرا لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على عملية الأسلوب القصصي، السلس، والمشرق، أدخلت أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي"[3].

ويعود اكتشاف السرد الرحلي في التاريخ حسب بعض الباحثين إلى القرن 2300 قبل الميلاد من خلال قصص موصوفة من طرف المصري هيركوف (Hirkouf) بالخط الهيروغليفي على ضريحه. كما عُرف أحيانا بأنه أول مكتشف في العالم بفضل رحلاته في مصر وعلى النيل. كما يوجد نوع السرد الرحلي في ثقافات قديمة أخرى، ففي بلاد ما بين النهرين ألفينا ملحمة جلجامش (l'Épopée de Gilgamesh)، وفي اليونان القديمة أوديسة هوميروس (l'Odyssée d'Homère) التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. كما ظهر مؤلفون آخرون في القرن 460 قبل الميلاد عندما كتب هيرودوت (Hérodote) قصص (Histoires) الحروب الفارسية على نحو رسمي وسردي؛ حيث يلاحظ القارئ في نصوص فصولها غياب هيرودوت المؤلف؛ بمعنى أن اكتفى بالمشاهدة دون وصف تطلعاته الشخصية. في هذا العصر كان الموضوع الرئيسي للسرد الرحلي هو الرحلة في ذاتها وليس الرحّالة الذي كان يبحث على جمع الأحداث والمشاهدات. وفي القرن الرابع بعد الميلاد يمكننا ملاحظة تطور رسائل القديسة الغربية التي تحكي رحلة حجها إلى بيت المقدس

حيث بلغت هذه السرود الدينية حتى القرنين 11 و15 الميلاديين نحو 526 قصة رحلية، تلتها لاحقا في القرن 14م رحلات ماركو بولو (Marco Polo)، وفي القرن 15م ألفينا رحلات كريستوف كولومب (Christophe Colomb) إلى العالم الجديد المكتشف المتمثل في القارة الأمريكية.[4]

أما لدى العرب، فقد ظهر السرد الرحلي في القرن الثالث الهجري (ق.9م). ومن أقدم الرحّالة نجد سلام الترجمان الذي أرسله الخليفة الواثق (842-847م) في بعثة إلى بلاد الصين ليشاهد السد الذي بناه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج، وعادت الرحلة لتقص على الناس أخبار الصين وعجائبها"[5]. أما "الرحلة كفن (أدب)، قد تأسس في الأدب العربي عموما على يد أبي بكر بن العربي (ت 543هـ) عندما دوّن رحلته عام (48هـ/1092م)، ثم تضيف المصادر والأبحاث جانب التأسيس إلى ابن جبير (ت. 614هـ) من خلال رحلته الموسومة «تذكرة بالأخبارعن اتفاقات الأسفار» التي كانت عام 578هـ، فبين هذا وذاك، قام الورجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم (ت 614هـ) برحلة حجازية، جمع مسارها وحيثياتها ضمن قصيدة مطولة تتضمن 374 بيتا، أبرز من خلالها عملا فنيا في مجال الرحلة، ومن ثمّ حقّ له أن يُتوّج رائدا لأدب الرحلة في تاريخ الجزائر"[6]. وشهد أدب الرحلة ازدهارا كبيرا حتى القرن الثامن الهجري (ق.14م)، ثم تقلص نسبيا خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين (15، 16م) وتوقف تقريبا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (17 و18م)، ولا يكاد يُذكر إلا رحلتي النابلسي والعيّاشي. ويرجع هذا التوقف إلى عدة أسباب تاريخية وسياسية منها زوال دولة الأندلس، انشغال كل دولة بمشاكلها الداخلية والنزاع على السلطة، والنكوص الثقافي، وبدء الكشوفات الجغرافية الكبرى واكتشاف الأمريكيتين وغيرها. ثم عاد أدب الرحلة إلى الانتعاش مجددا في بداية القرن التاسع عشر الميلادي بعد الحملة الفرنسية على مصر حيث بدأها محمد عمر التونسي سنة 1903 برحلة إلى بلاد العرب والسودان وضمنها كتابه «تشحيذ الأذهان». وتلاه رفاعة الطهطاوي بكتابه «تلخيص الإبريز في تلخيص باريز» وصف فيها رحلته إلى باريس، ومحمد عياد الطنطاوي صاحب كتاب «تحفة الأذكياء بأخبار روسيا»[7]. وكذلك أحمد فارس الشدياق في رحلتيه اللتين وضعهما في كتابين «الواسطة في أحوال مالطة» و«كشف المخبأ عن فنون أوربا». وقد وصف في رحلته جزيرة مالطا جغرافيا وتاريخيا واجتماعيا، وتحدث عن عادات أهلها وأخلاقهم ولغتهم، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وأشار إليها. أما الرحلة الثانية، فقد وصف فيها عادات أهل أوربا خاصة الإنجليز والفرنسيين ومتاحف لندن وباريس والآثار الفنية والحضارية وغيرها[8].

II- الاستطلاع الصحفي :

يعرّف الاستطلاع الصحفي (Le Reportage)؛ بأنه استطلاع "يسلط الضوء على ظاهرة أو منطقة أو واقعة ما. أسلوبه قريب جدا من الصياغة الأدبية، يمتازبجمالية اللغة. ويركز على الوصف الزماني والمكاني والفاعلين فيه وتتدفق شخصية كاتبه بشكل واضح من خلال أحاسيسه ورؤيته لما لاحظ وشاهد وسمع"[9].

والاستطلاع الصحفي يقوم به الصحافي بصفة مستقلة أو بتوكيل من مؤسسته الإعلامية، وهو نوعان: الأول يتمثل في الاستطلاع الآني؛ وهو تغطية صحفية آنية مرتبطة بالحدث وتكون مباشرة خاصة في الإذاعة والتلفزيون. أما الثاني فلا يرتبط بالحدث وتسقط فيه الآنية والحداثة، وإنما تختار المؤسسة الإعلامية موضوعا ما ينجزه الصحافي ويتم بثه في وقت معين كاستطلاع حول مدينة تيمقاد، أو آثار الرومان في تيبازة... الخ. وينتمي الاستطلاع الصحفي إلى جنس الإعلام المكتوب، أو الإذاعي، أو السمعي البصري، أو الاعلام التفاعلي الإلكتروني. أما الاستطلاع الصحفي المكتوب؛ فهو عمل ميداني ينجزه الصحافي بلغة سردية ووصفية جمالية، يكون فيه شاهدا على ما رآه وسمعه وعاشه على أرض الواقع ومسجلا فيه ما وقف عليه من أحداث وشخصيات فاعلة تشكل كلها متن القصة الخبرية للاستطلاع، ثم يقوم بنقلها إلى المتلقي سرديا ووصفيا في إطار مبنى تعبيري هو الخطاب السردي. والاستطلاع الصحفي من حيث الوسيلة الإعلامية له أنواع منها: الاستطلاع المصور، الاستطلاع المكتوب، الاستطلاع الإذاعي، الاستطلاع التلفزيوني، الاستطلاع الإشهاري...الخ. والحقيقة أن "الاستطلاع الصحفي كنصّ، متولّد من تصورات الدراسات الصحفية والأدبية، ويتواجد في المنطقة الحدودية بين الصحافة والأدب [...] وطاقته السردية لا تكون واضحة بما فيه الكفاية دون مرجعيته التاريخية بين الصحافة والأدب"[10].

أما أنواع الاستطلاع الصحفي من حيث الموضوع، فهناك الاستطلاع السياسي والقضائي والرياضي حيث يكون السارد الصحافي مدعوا إلى متابعة سلسة الأحداث وهي غالبا متوقعة أو معلن عنها. وهناك استطلاع الأخبار العامة؛ ويقوم فيه الصحافي بمعالجة الأحداث غير المتوقعة تقريبا، ولا ترتبط ببعضها بعضا مثل الأحداث المتنوعة (Faits Divers)[11]، وهناك أيضا الاستطلاع الكبير (Le Grand Reportage) الذي يقوم فيه الصحافي الاستطلاعي بمعالجة موضوع واسع جدا في الغالب يصل إلى دراسة بلد بكامله وبكل صوره؛ حيث ينشر مقالا أو سلسلة مقالات تشكل أهم خصائص البلد حتى يعرّف بها قراءه؛ من خلال الاهتمام بجانب المظاهر الأصيلة والجذابة، وبجانب الأحداث وعلامات

التطور السياسي، والاقتصادي والاجتماعي"[12]، وهو" يتميز يميله إلى شرح العالم من خلال السرد. وسواء من منظور صحفي أم منظور الدراسات الأدبية، فإن الاستطلاع يقع على الحدود بين الصحافة والأدب"[13]؛ بمعنى أنه يأخذ من الصحافة خاصية تناول أحدث الواقع، ويأخذ من الأدب أسلوبه ولغته السرديتين. يقول سارتر "يبدو أن الاستطلاع الصحفي ينتمي إلى الأنواع الأدبية ويمكنه أن يصبح من بين أهمها جميعا"[14].

أما الصحافي الاستطلاعي فهو "صحفي مُرسل إلى عين المكان لكي يرى، ويسمع، ويحسّ، ويسجّل، وفي النهاية يسرد حدثا. ولا تكفي الشهادات التي يجمعها؛ فالصحفي ينبغي –فوق ذلك- أن يكون قادرا بما فيه الكفاية على فهم ما كان شاهدا عليه حتى يُفهمها إلى القراء [...]؛ بمعنى أن الاستطلاع يجب أن يكون شهادة أصيلة وكاملة"[15].

ويعتبر الاستطلاع نشاطا أو مهنة الصحافي الاستطلاعي (Reporteur). وبإمكان الاستطلاع أن يكون قصيرا نسبيا أو طويلا للغاية؛ حيث يتوسع ويمتد في حجمه وعدد صفحاته ليصل إلى أكثر من مائة صفحة إن لم تكن بضع مئات، وذلك في تشابه كبير مع كتب أدب الرحلة. ويتم نشر هذا الاستطلاع السردي المكتوب في صحف ورقية أو إلكترونية من عدة صفحات كبيرة أو في شكل «مجلة-كتاب» (Mook) اختصارا للكلمتين الأجنبيتين (Magazine-Book). ومن هذا النوع نجد مجلات مثل «Revue XXI» و«Feuilleton» الفرنسيتين. وفي بعض البلدان العربية وجدنا على سبيل المثال لا الحصر ، في الجزائر استطلاعا صحفيا مطولا من الحجم الكبير منشورا في شكل مجلة-كتاب من 290 صفحة بعنوان «إمبراطورية السراب قصة احتيال القرن» أصدرته مؤسسة «الخبر» الإعلامية؛ وهو استطلاع صحفي مكتوب يغطي زمنيا عدة أشهر قضاها صحافيون من المؤسسة جيئة وذهابا بين مكان عملهم ومقر محكمة جنايات مجلس قضاء البليدة والقيام بتغطية صحفية لكل ما رأوه وسمعوه خلال مجريات محاكمة عبد المومن خليفة المتهم بالفساد وتبديد واختلاس المال العام حيث أدانته المحكمة في منتصف شهر نوفمبر من سنة 2020 بـ 18 سجنا نافذة ومليون دينار غرامة مالية. وقد شارك في هذا الاستطلاع سبعة صحفيين وهم محمود بلحيمر ومصطفى صالحي ومراد محامد وزبير فاضل وحفيظ صواليلي وفاروق غدير وسليمان حميش[16].

III- التشابه والاختلاف بين السرد الرحلي والاستطلاع الصحفي :

هناك نقاط تشابه أساسية وكبيرة في الشكل والمضمون بين السرد الرحلي والاستطلاع الصحفي. فهما يتشابهان من حيث الحجم وعدد الصفحات مع فارق بسيط موجود في الاستطلاع الصحفي يتمثل في إمكانية تقليص حجمه –وهو الغالب- حيث يكفيه أن يكون

في صفحات محدودة قد تنخفض إلى صفحة واحدة أو صفحتين وفقا لطبيعة الموضوع المُتناول وحاجة المتلقي المعاصر للوقت القصير للقراءة في عصر السرعة كما نلاحظه في استطلاعات الجرائد اليومية والأسبوعية وأنواع من المجلات الدورية.كما أن الرحلة تشكل موضوع وهدف الرحّالة، وهو ما يوافق أن الاستطلاع أيضا رحلة صحفية تشكل موضوع وهدف الصحافي. وحكاية الرحلة تماثل القصة الخبرية الصحفية في الاستطلاع، والقصّ ووصف المكان والناس في حكاية الرحلة تمثّل نص الخطاب السردي لكل من الرحلة عند الرحالة، والاستطلاع عند الصحافي.

ويقوم الاستطلاع الصحفي على سرد ووصف حقائق الواقع في مشابهة بسرد أدب الرحلة مثلما كتبه الرحالة عبد اللطيف البغدادي (ت 629هـ) في مؤلفه الصغير بعد رحلته الاستطلاعية لمصر سماه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» وأهم ميزة فيه "أنه يرصد بدقة العالِم ظروف مصر الاجتماعية والصحية أواخر القرن السادس الهجري، خاصة المجاعة الهائلة والوباء الفتاك اللذين هددا الحياة في مصر عامي 597 و598 هـ" ، وبالقدر الذي "يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى"

أما نقاط الاختلاف بينهما؛ فهي شكلية وتنظيمية أكثر منها جوهرية. فالاستطلاع الصحفي المكتوب يختلف عن السرد الرحلي المكتوب في التخصص الموضوعاتي وفي جهة التكليف. فصاحب الرحلة –غالبا- ما يبادر بنفسه بكتابة مشوار رحلته دون تكليف من جهة معينة بينما الصحافي تكلفه عموما مؤسسته الإعلامية بهذه المهمة، كما قد يماثل تماما الرحالة في المبادرة إذا كان الصحافي يعمل مستقلا عن المؤسسة الإعلامية. ومن ناحية التخصص الموضوعاتي، فإن السرد الرحلي موسوعي ويلامس حقولا معرفية شتى. أما الاستطلاع الصحفي، فنجده متخصصا في موضوع واحد كأن يكون استطلاعا سياحيا أو ثقافيا أو اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا... الخ.

IV- السرد الرحلي بين الاندثار والتحوّل إلى الاستطلاع الصحفي :

بداية، نستعرض آراء بعض الكتاب والنقاد الذين يقولون باندثار السرد الرحلي وانطفائه كجنس أدبي دون معرفة أسباب ذلك بالتحديد. يعتقد الناقد سعيد بوطاجين بأنه "من الصعب تحديد الأسباب الحقيقة التي أدت إلى خفوت هذا النوع، أو انمحائه، رغم قيمته الكبيرة في إضاءة المتلقي بمجموعة من المعارف التي لا يستطيع الشعر والسرد الإحاطة بها"[17]. كما ذهب الباحث عبد الله العشّي نفس المذهب وربط سبب انطفاء السرد

الرحلي باستئثار الرواية بتلبية حاجة الجمال لدى المتلقي" لا أظن أن الرحلة يمكن أن تجد لها موقعا في الدائرة الأدبية، بحكم استئثار الرواية والقصيدة بالحاجات الجمالية لدى القراء وقدرتهما على إشباعها، لكن يمكنها أن تكون رافدا لهما؛ أعني للرواية وللقصيدة. ونحن كقراء، إن لم نستمتع بالرحلة فسوف نستمتع بغيرها، فالجمال ليس له شكل ولا نوع. ولا حيز ولا جهة"[18]. ويعزو الناقد عبد المالك بومنجل انحسار أدب الرحلة إلى عدم الوعي بكتابتها " أظن أن قلة الوعي بأهمية الكتابة في هذا الفن هي أكبر العوامل المؤثرة في ندرته أو غيابه"[19]. أما الباحث محمد قنديل في كتابه «أدب الرحلة في التراث العربي» فرأى بأن أدب الرحلة بات تراثا من الماضي، وربط اختفاءه بتيسّر وسائل الاتصال الحديثة التي جعلت العالم قرية صغيرة وكتابا مفتوحا، ووفّرت على الناس ما كانوا يجدونه قديما في أدب الرحلات" إنني أزعم أن أدب الرحلات أوشك أن يكون- كالفلسفة- تراثا فقط، لا جديد يمكن أن يضاف إليه بعد أن تيسر السفر والانتقال لكل إنسان، واستطاعت وسائل الإعلام بتقنياتها الهائلة أن تجعل من العالم قرية صغيرة، وكتابا مفتوحا لأغلب شعوب الأرض"[20].

إننا، بلا شك، لا نوافق هؤلاء الباحثين وأمثالهم فيما ذهبوا إليه من آراء تقول بزوال أدب الرحلة. ولعل الملاحظة التي نسجّلها عليهم؛ هي أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث وتتبع تطور ومآلات أدب الرحلة واحتمال انتقاله إلى أجناس علوم ومعارف أخرى يمكنها أن تستوعبه في إطار التنامي وتكامل المعارف والعلوم فيما بينها على غرار محاولة الباحث محمد حسين فهيم الذي لم يقتنع بانطفاء أدب الرحلة، فراح يتلمّس أثره في حقل الأثنوجرافيا، وهي فرع من فروع علم الأنثروبولوجيا الحديثة باعتبارأن الأثنوجرافيا تعني وصف الشعوب. فقد خصص هذا الباحث في كتابه «أدب الرحلة» فصلا كاملا بعنوان «الرحالة كإثنوجرافيين والإثنوجرافيين كرحالة»؛ حيث رأى أن "موضوع الأثنوجرافيا يتعلق أساسا بوصف طبائع التقاسيم في معرفة الأقاليم ما يعدّ توضيحا مسهبا لطبيعة الموضوعات والمسائل التي تتصل بوصف الأقاليم وطبائع البشر، وطرائق الحياة، وهي كلها أمور رئيسية في الوصف لأسلوب حياة مجتمع معين..."[21]. وقد أورد الباحث في هذا الفصل من كتابه عدة نماذج من الرحالة العرب مثل بن بطوطة، وولد محمد بن سليمان التونسي في كتابه «رحلة تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، ومن الأجانب ذكر نموذج الرحالة البريطاني وولفريد ثيسيجر في كتابه «رمال العرب». كما تعرض للمنهج الإثنوجرافي في دارسة الرحلة مشيرا إلى " أن الإثنوجرافي لا يهتم بالرحلة لذاتها، وما ينجم عنها من أحداث ومواقف قدر اهتمامه بوصف المكان الذي قصده، والناس الذين تعايش معهم

لفترة طالت أم قصرت. ذلك على عكس الرحالة الذي تشكل الرحلة عنده الموضوع والهدف، ويأتي الوصف للمكان والناس في إطار حكاية الرحلة ذاتها"[22].

كما لم يعترف الباحث سعيد يقطين بموت أدب الرحلة، فراح يبحث عنه في الرواية الأدبية "لقد استوعبت الرواية بعض ثيمات وموضوعات وتقنيات الرحلة، بمعناها التقليدي، ولكنها وظفتها بما يتلاءم مع قواعد الشكل الروائي الحديث والمتطور مع الزمن، لذلك يمكننا أن نجد الكثير من الروايات تنبني على أساس الرحلة ولكنها تقدم بطريقة مختلفة عن الرحلة بمعناها القديم"[23]. كذلك حاول يقطين البحث عن أدب الرحلة في الاستطلاع الصحفي المكتوب "لقد تجدد أدب الرحلة العربي في العصر الحديث، بسبب عوامل كثيرة لعل أهمها تطور وسائل النقل، وانفتاح العوالم، وازدهار السياحة. وصارت الوسائط المتعددة والمتفاعلة تسهم في التعرف على العوالم المختلفة [...] صار من يقدم على الرحلة، ولو لمقاصد لا علاقة لها بالرحلة في ذاتها (المشاركة في مؤتمر)، من جهة، أو للسياحة (إلى بلد أجنبي)، من جهة ثانية، أو بهدف الرحلة (من أجل الرحلة)، من جهة ثالثة، أن يكتب مشاهداته وتأملاته وما تحصل له من خلالها، محاولا إشراك القارئ معه في التعرف على معايناته وما طرأ له أثناء سفره"[24].

بأن أدب الرحلة العربي قد تجدد في العصر الحديث، بسبب تطور وسائل النقل، وانفتاح العوالم، وازدهار السياحة والوسائط المتعددة والمتفاعلة التي أسهمت في التعرف على العوالم المختلفة، ودفعت للمغامرة والسياحة بهدف الاستكشاف والمتعة مشيرا إلى دور الإعلام في ذلك من خلال التحقيقات والأفلام الوثائقية. واعتبر أن من يقدم على الرحلة في عصرنا، ولو لمقاصد لا علاقة لها بالرحلة في ذاتها كالمشاركة في مؤتمر، أو السياحة إلى بلد أجنبي، أو بهدف الرحلة لذاتها أن يكتب مشاهداته وتأملاته محاولا إشراك القارئ معه في التعرف على معايناته وما طرأ له أثناء سفره.

٧- علاقة السرد الرحلي بالسرد الصحفي

درج الكتاب والنقاد في بداية ظهور الصحافة على تصنيف أدب الرحلات والكتابات الصحفية عامة ضمن حقل الأدب حتى ألفينا ما يسمى بالأدب الاستطلاعي الصحفي الذي تمرّس فيه أدباء وكتاب كبار من خلال نقلهم إلى المتلقي عبر الصحافة مجريات الواقع بحقائقه وأحداثه الميدانية باستعمال الأسلوب السردي الأدبي. وما يعزز هذا الطرح أكثر، هو التزامن التاريخي في أوربا لإنتاج كبار الكتاب والأدباء لنصوص السرد الرحلي ضمن عملهم الصحفي "منذ القرن التاسع عشر الميلادي، ربطت الصحافة والرحلة علاقات متينة جدا فيما بينهما حيث يحكي الصحافي الرحّالة بل ويشارك رحلته مع قرائه. وقد

حصل هذا، حتى قبل ميلاد الصحافي الريبورتاجي أو الريبورتاج (الاستطلاع)، وهو ما سجل في الأخير ظهور مجلة وصف الرحلة خاصة عند بداية عهد القصة الرحلية الرومانسية كنوع أدبي جديد. وكان الاهتمام لا يتعلق فقط بنقل المعارف الموضوعية من طرف الرحّالة بل بنوعية التعبير عن المشاعر والعواطف ومغامراته خلال الرحلة"[25].

إن علاقة الأدب بالصحافة علاقة وطيدة ومتبادلة التأثير والتأثر "فأدب الرحلة [...] (فن أدبي) يعدّ أساسا للاستطلاع (فن صحفي)، والذي يعدّ من أهم موارد القصة الواقعية الحديثة (فن أدبي). ويذهب مولتن إلى أن الملحمة قد دخلت الصحافة على شكل قصة مسلسلة، وأن الشعر الغنائي كيّف نفسه مع الصحافة على شكل (زاوية شعر) التي شاعت في الصحف والمجلات، وأن الدراما دخلت الصحافة على شكل (كارتون) مصحوب بحوار في أغلب الأحيان أو بتعليق قصير، ودخلت الفلسفة على شكل افتتاحيات أو مقالات صحفية ذات رأي، أما الخطابة فقد تحولت في الصحافة عند هذا الباحث إلى (رسائل إلى المحرر) فأصبح جميع المستمعين هو جمهور القرّاء وهذه إحدى فضائل الصحافة"[26]

وقد قام العديد من مؤلفي الرحلة الذي نشروا رحلاتهم في الصحافة بتخليص قديما بتخليص السرد الرحلي من تشعب موضوعاته وأسلوبه التقليدي ولغته العلمية المباشرة، وصار بالمقابل أدبيّ الأسلوب واللغة وتركز حول موضوع محدد. كما أصبح هؤلاء المؤلفين الرحالة قادرين على كسب رزقهم أرزاقهم بأقلامهم ككتاب صحفيين بكامل المواصفات. ومن هذه الوجوه البارزة في ذلك العصر، كتّاب رحّالة تُشكّل ذكريات أسفارهم جزءا من مؤلفاتهم المنشورة في الصحافة من أمثال ألفونس دي لامارتين (Alphonse de Lamartine)، وفيكتور هيغو (Victor Hugo)، وجورج ساند (George Sand)، وألكسندر دوماس (Alexandre Dumas)، وجيرار دي نرفال (Gérard de Nerval)، و تيوفيل غوته (Théophile Gautier)، وجيل فارن (Jules Verne)، و فرانسوا ريني دي شاتوبريان (François René de Chateaubriand)[27]. وأيضا إيميل زولا (Emile Zola)، وشارل ديكنز (Charles Dickens)، وهنري مورتن ستانلي (Henry Morton Stanley)، وهاينرتش هين (Heinrich Heine)، وجورج ويرث (George Wirth)، ولودينغ بورن (Luding Borne)[28].

ثم تعزز شعور التكافؤ أكثر بين الرحّالة والصحافي بظهور الصحافي المراسل (Reporter) في سنة 1829 على يد الكاتب ستاندال (Stendhal) حيث نشر «جولات في روما» (Promenades dans Rome). ومن ثمة، ظهر لأول مرة –بالفرنسية وبقلمه- مصطلح (Reporter)؛ ثم ظهر هذا المصطلح مجددا في عام 1866 في جريدة (Le Figaro) الفرنسية، ثم أصبح يستعمل بشكل يومي. كما كان الكاتب شاتوبريان (Chateaubriand)

عضوا شريكا ومحررا رئيسيا في جريدة «المحافظ» (Conservateur)، ومحرر في جريدة النقاشات (Journal des Débats). كما كان مراسلا صحفيا لعدة دوريات أخرى منها «لاغازيت» (La Gazette)[29].

والحقيقة، أنه مادام السرد الرحلي وسرد الاستطلاع الصحفي يتشابهان إلى حدّ كبير، فلا غرابة أن نعتبر الاستطلاع الصحفي تطورا طبيعيا للسرد الرحلي أو أدب الرحلة الذي يعدّ سردا واقعيا؛ وهو نوع أدبي قديم تابع لجنس الأدب كان منتشرا في زمنه على نطاق واسع سواء لدى العرب أم الغربيين. ووفقا لكلاينشتير (Kleinsteuber 1997) وكابوسينسكي (Kapuscinski 2005)، فإن الأسلوب السردي الأدبي للاستطلاع الصحفي يعود إلى العصر الإغريقي القديم حيث يمكن النظر إلى رحلات هيرودوت (Herodot) كنموذج للاستطلاع الصحفي المعاصر. وفي القرن 18 وبداية القرن 19م، اتبع الكتاب الرحالة الألمان خطوات هيرودوت مثل جورج فورستر (Georg Forster) (1754-94) وجوهان غوتفريد سوم (Johann Gottfried Seume) (1763-1810). وبعد أن صارت الصحافة حرفة في القرن 19م، فإن مفهوم الصحافي الذي يمثّل السارد الأدبي واللغوي والشاهد العيان في نفس الوقت قد ظهر في الاستطلاعات الصحفية لدى إيغون أروين كيش (Egon Erwin Kisch) في بداية القرن العشرين[30]. وقد زاد من تطور العلاقة بين الأدب والصحافة ظهور الروائيين والصحفيين الأمريكيين الذين كانوا مرتبطين بصعود الصحافة الجديدة على غرار كابوتي Capote وولف Wolfe، جون ديديون Joan Didion وجاي تاليس Gay Talese وجون ماكافي John McPhee وهانتر ثامبسون Hunter Thampson وتراسي كيدر Tracy Kidder وآخرين حيث عاد هؤلاء إلى استعمال التقاليد الأدبية القديمة في العمل الصحفي. وقد فعلت «صحيفة عام الطاعون» (A journal of the Plague Year) لصحابها ديفو (Defoe) في سنة 1722 ما فعلته تماما الصحافة الجديدة من دمج تجميع الحقائق الصحفية مع التقنيات الأسلوبية الأدبية.[31] وقد وضع دوج أندروود في كتابه « الصحافة والرواية» تذييلا اشتمل على 313 روائيا صحفيا أمريكيا[32] . وقد كان هؤلاء ومن ضمنهم تولستوي، كسيل، وهيمنغواي وغيرهم من الروائيين الصحفيين في نوع الصحافة السردية المتمثلة في قصص الاستطلاعات الصحفية المكتوبة بأسلوب أدبي.

ومع ظهور علم السرديات وهو مصطلح فرنسي صاغه « تودوروف» سنة 1969[33]، انفتح مجال الرؤية العلمية أكثر لمراجعة وتغيير النظرة القديمة للكثير من المعارف والمناهج التي كانت بديهية في عصرها؛ ومن ذلك السرد بمفهومه العلمي الجديد حيث صار يضم

بين دفتيه النثر بنوعيه الجيّد البليغ والرديء المهمّش؛ لكون معايير الجمال الفني التي كانت قائمة على البلاغة، والمحسنات البديعية، والصور الفنية التقليدية وغيرها من الفنّيات التي كانت سائدة قديما ضمن الثقافة العالمة التي تُمثلها السلطة والنخب الدائرة في فلكها، قد تغيرت جذريا وصار للجمال مفاهيم وأدوات فنية أخرى مختلفة جاءت بها الدراسات السردية.

وقد فتح أمامنا مجال السرديات آفاقا جديدة للنظر بعمق لكل من أدب الرحلة والاستطلاع الصحفي. فعند التدقيق في النوعين السرديين، نلاحظ بأن كل منهما ينتمي إلى جنس مغاير عن الآخر هما الأدب والإعلام، ولكنهما في واقع الأمر يشتركان في الانتماء إلى السرد الواقعي غير التخييلي تحديدا. كما أن أدب الرحلة والاستطلاع الصحفي يحملان – كلاهما- الخاصية المشتركة نفسها في كونهما ينقلان إلى فضاء التلقي حقائق الواقع والميدان من مشاهدات ومسموعات ومعايشات وأحداث وشخصيات حكائية فاعلة وغيرها سجلها بنفسه الرحالة أو الصحافي في منطقة ما أو أكثر أو في بلد ما أو أكثر، مع تخصص الاستطلاع الصحفي عامة على موضوع واحد رئيسي ينجزه الصحافي وينشر أو يبث في وسائل الإعلام والاتصال الحديثة. وقد يكون موضوعه السياحة، أو الثقافة، أو البيئة، أو المجتمع، أو التنمية أو حياة شخصية مرموقة...إلخ، في حين أن أدب الرحلة يتميز بكونه موسوعيا ومتعدد الموضوعات. ولعله السبب في عدم قدرة الكتّاب على إنتاج أدب الرحلات بمفهومه القديم في عصرنا الحالي.

والحقيقة، أن السرد الرحلي والاستطلاع الصحفي -باعتبارهما قائمين على السرد- ينقلان بكيفية ما الواقع وحقائق الميدان إلى خطاب سردي متنه القصة أو الحكاية الخبرية في اختلاف واضح عن السرد التخييلي والفني الذي نجده في الرواية الأدبية والحكايات الخرافية، والمسرحية والمقامة وكذلك في الفنون التشكيلية والصورة والفيلم السينمائي وغيرها. فالاستطلاع الصحفي سواء أكان من النوع المكتوب، المسموع، المرئي، أم التفاعلي في وسائل الاتصال الالكترونية الحديثة، فإنه استطاع أن يتمثّل –بجدارة- السرد الرحلي بحسب الشروط الفنية في كل نوع من هذه الاستطلاعات من حيث عناصر القصة الخبرية والبناء والصيغة والوصف والحوار والأسلوب السردي.

VI- ارتحال السرد الرحلي إلى الاستطلاع الصحفي :

يبدو أن الكتابة السردية الرحلية قد ذابت أو انحلّت شكلا ومضمونا في الكتابة السردية للاستطلاع الصحفي على يد كتاب كبار رحّالة كانوا يمارسون الصحافة في نفس الوقت حيث استطاعوا تخليص النص السردي الرحلي القديم من الكثير من أساليبه

التقليدية وتنوع وتشعّب موضوعاته. وقد برزت الكتابة السردية الرحلية أكثر ما برزت في نوع الاستطلاع الصحفي المكتوب الذي استطاع استيعابها وتمثّلها. ومن ثمة فإن السرد الرحلي أو أدب الرحلة لم ينطفئ أو يخفُت كما ذهب إليه بعض الدارسين بل إنه تحوّل في تطوّر مذهل إلى الاستطلاع الصحفي. ولعله الأمر الذي دفع الباحث عيسى بخيتي إلى الاعتقاد بأن الاستطلاع الصحفي هو نوع من السرد الرحلي "تُرجّح الكفّة في كتابة النصوص الرحلية –في اعتقادي- إلى الكتّاب الصحفيين الذين برزوا بشكل كبير سواء على مستوى الريبورتاج الذي يعدّ شكلا من أشكال الكتابة الرحلية، أو على مستوى الكتابة الرحلية ذاتها"[34] وهذا بعد تردده قبل سنة في البتّ حول هذه القضية في أطروحته للدكتوراه حول أدب الرحلة الجزائري الحديث، والتي ذكر فيها أن" التنوّع فيما تحتويه الصحف من كتابات مختلفة المشارب ما جعلها مظانّاً متوجس منها، تقوم على المحتمل أكثر مما تقوم على الثبات، وخاصة النص الرحلي الذي وجد نفسه في هذه البوتقة نصّا إشكاليا مضطرب التبنّي، مفوضا للنفور قد عفّ عنه النقد طيلة مدة مديدة مكث فيها تحت الغبار الأرشيفي"[35].

وفي تشاقق بين السرد الرحلي والاستطلاع الصحفي، فضّل الباحث نور نعيم يونس السويكري إطلاق تسمية «الرحلة الصحفية» على الاستطلاع الصحفي "قصص الرحلات الصحفية، وهي القصص التي تتناول التجربة الشخصية للكاتب أثناء رحلة سياحية لدولة ما، أو مكان ما، بحيث ينقل الكاتب التجربة التي عايشها والخبرة التي اكتسبها من هذه الرحلة إلى القارئ وكأنه كان معه"[36].

ويلاحظ –هنا- التقاء قصة الرحلة الصحفية بقصة سرد الرحلة على مستوى سرد القصة الخبرية سردا غير تخييلي من خلال سرد ووصف أحداثها الواقعية، وعرض شخصياتها الحكائية الفاعلة، وذكر الزمان والمكان المحددين في كليهما؛ فأدب الرحلة مثل فن الاستطلاع الصحفي قائم على نقل الحقائق والوقائع الميدانية "أدب الرحلات [...] معني أساسا بالرحلة الواقعية ذات المحددات المكانية والزمانية، سواء جرت في الأرض أو في السماء أو تحت الأرض وفي أعماق البحار"[37] وتتعدد أغراض الرحلات التي يستهدفها الرحالة وهي غالبا إما أن تكون دينية، علمية أو تعليمة، اقتصادية، سياسية، سياحية وثقافية، صحية أو أخرى[38]. وأغراض أدب الرحلة تكاد تكون، في الحقيقة، ذات الأغراض التي يستهدف الصحفي تحقيقها من وراء رحلته الاستطلاعية الصحفية التي تشكل اهتماما كبيرا لدى جمهور المتلقين لكي يتزوّدون بمعارف جديدة، كما يمكن أن تتغير مواقفهم إزاء مرويات الاستطلاع، بنفس القدر الذي تحققه قصة أدب الرحلة "وأيا كان

الغرض من الرحلة فإنها في أغلب الأحوال سلوك إنساني حضاري، يُؤتى ثماره النافعة على الفرد والجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها"[39]

وإذا كان السارد في أدب الرحلات يتميز باستعمال ضمير المتكلم و" تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره"[40] فإن الاستطلاع الصحفي سرد قصصي بامتياز قوامه النقل السردي للقصة الخبرية بأحداثها وشخصياتها ومحاوراتهم ووصف فضائها الواقعي وذكر زمانها ومكانها...الخ. ويمكن للصحافي استعمال ضمير المتكلم في الاستطلاع حيث يتحول إلى سارد. فسرد الرحلة قديما لا يختلف من حيث الجوهر عن سرد الاستطلاع الصحفي. وهكذا أصبح اليوم السرد الرحلي هو السرد الاستطلاعي المنتمي للصحافة السردية، كما وضحها صحفي الاستطلاعات في يومية " لوسوار" البلجيكية آلان لاماند (Alain Lallemand) في كتابه -الصحافة السردية في التطبيق- بأنها صحافة تقوم على " أن الواقعي يمكن إخراجه (Mise en scène) لا أن يُنقلَ بشكل بارد جدا، وأن استعمال ضمير المتكلم المفرد هو الأنسب من أجل ذكر وجهات نظر الشخصيات، وأن التفاصيل الوصفية أكثر فاعلية من التوكيد، وأن طرح الحوارات بكاملها أفضل من تضمين أقوال منقوصة غارقة في فقرة "[41].

ولعل التداخل والتشابه الكبير في الشكل والمضمون بين النصّين السرديين الرحلي والاستطلاعي الصحفي جعل بعض الباحثين يضبطون توليفة واحدة للصنفين بمسمى «الأدب الريبورتاجي»– نسبة إلى reportage؛ أي الاستطلاع الصحفي "الأدب الريبورتاجي هو ذلك الأدب الراصد قبل أن يحلل، والباحث عن الواقع والوقائع قبل التخيل، القائم على مجمل عناصر بناء أشكال الأدب الأخرى، في النثروالشعر، من الحوار والسرد بالإضافة إلى الإحصاء، يتوجه إلى القارئ العادي قبل الناقد المتخصص، حيث معيار جودته، هو قدرة تصويره لـ«الحقيقة»"[42].

VII- السرد الرحلي وسرد الاستطلاع الصحفي عند التطبيق:

من الناحية العملية والتطبيقية، وجدنا أن مجريات الرحلة قابلة للنقل سرديا ضمن الاستطلاع الصحفي بعد تكييفها شكلاً ومحتوىً وفقا لأدواته الفنية. فالنص الرحلي والنص الاستطلاعي الصحفي يتماهيان معاً؛ لكونهما سردا غير تخييلي ينقلان الحقائق ومجريات الواقع من الفضاء الجغرافي الواقعي إلى خطاب السرد المكتوب بالنسبة لصاحب الرحلة، أو إلى خطاب الاستطلاع الصحفي السردي المكتوب، أو السمعي، أو السمعي البصري، أو التفاعلي بالنسبة للصحافي. كما أن صاحب الرحلة والصحفي يجيب-كلاهما-

في خطاب الرحلة وفي خطاب الاستطلاع على عدة أسئلة مركزية واحدة تقريبا معروفة في مجال الإعلام بالأسئلة الستّة الأساسية التي تتشكل منها القصة الخبرية أو الحدث القصصي القابل للحكي، وهي: ماذا جرى؟ وهو ما يدفع الرحالة والصحافي إلى الإجابة عن هذا السؤال بأن ينقل كل منهما إلى المتلقي عن طريق السرد – كلّ حسب وسيلة الاتصال لديه (الكتاب بالنسبة للرحالة، والوسيلة الإعلامية بالنسبة للصحافي)- قصة الحدث ومجرياته وصفاً وحواراً وسرداً؛ والمتمثلة في: ماذا وجد ورأى وسمع وعايش ولاحظ، وبمن التقى ومع من تحدث وعلى من استند في مصدر معلوماته، وهل هي موثوقة أم لا؟ ثم يتدرج الرحالة والصحافي في السرد بالإجابة عن السؤال: أين؟ والذي يكشف في نص الرحلة ونص الاستطلاع عن المكان أو الأماكن التي جرت فيها الأحداث. وبالإجابة عن السؤال: متى؟ يتم التعرف على زمن وتوقيت مجريات هذه الأحداث. وبالإجابة عن السؤال: لماذا؟ تتّضح غاية الرحلة وهدف الاستطلاع الصحفي، وكذلك أسباب وقوع هذه الأحداث وملابساتها. ثم بالإجابة عن السؤال: كيف؟ يسرد ويصف كلّا من صاحب الرحلة والصحافي كيفية وقوع هذه الأحداث، وأيضا شكل وكيفية أدائهما لمهمة الرحلة والاستطلاع وفقا لسيناريو إخراج سردي وصفي له متن هو القصة الخبرية أو محتوى الرحلة أو الاستطلاع وله شكل تعبيري هو الخطاب السردي.

VIII- توليفة السرد الرحلي والاستطلاع الصحفي:

مادام السرد الرحلي وسرد الاستطلاع الصحفي متشابهين في المضمون والشكل إلى حد كبير جدا، يبدو أنه من المشروع إيجاد توليفة واحدة تجمعها. ولعلنا نوافق الصحافي العربي الرحالة رياض نجيب الريّس على تسمية « الرحلة الصحفية» تعبيرا منه عن الجمع بين أدب الرحلة في ثوبه الجديد والصحافة السردية. ففي كتابه «صحافي ومدينتان.. رحلة إلى سمرقند وزنجبار»، أنجز الصحافي المذكور رحلته الصحفية السردية في 378 صفحة مدعّمة بالصور والخرائط والمراجع؛ حيث جمع بأسلوبه الصحفي نَفَس القصة مع تقنية أدب الرحلات والتحليل السياسي والاجتماعي. يقول في مقدمة هذا الرحلة الصحفية "هذه رحلة في الحاضر، وليست رحلة في الماضي. لكن الصحافي العربي القادم إلى آسيا الوسطى أو شرق أفريقيا لا يستطيع الهرب من التاريخ. فلا يمكن فهم أو تفسير كل ما يقع اليوم من أحداث في هاتين القارتين، إذا لم يتم ربطه مباشرة بالتاريخ... ولابد للصحافي العربي إلا وأن يمر بسلسلة من المتعرجات، أكانت حكايات اجتماعية أو قصصا طريفة أو أحداثا سياسية أو ظروفا اقتصادية أو نزاعات محلية أو روايات شخصية أو حروبا قبَلية. فالبحر الحضاري العربي- الإسلامي مازال يهدر حول آسيا الوسطى وشرق أفريقيا قاذفا على

سواحلهما بحمولتها التاريخية. بهذه الحمولة تبدأ رحلة هذا الصحافي إلى آسيا الوسطى وشرق أفريقيا في خريف 1992 وشتاء 1997"[43]

كما يؤكد هذا الصحافي الرحالة بأن "صحافي الرحلة [...] شخص يبحث ويحرر مقالات أو ريبورتاجات يتمثل موضوعها في إخبار الجمهور. إنه من يتلقى أجره بانتظام على عمله الذي ينشر على موقع (انترنيت) أو على نسخة ورقية. إن الأخبار التي ينتجها ذات علاقة مع التوقيت اليومي (جريدة)، الشهري (المجلة)، أو السنوي (الدليل). وهو شخص يحترم معايير وممارسات معينة في مهنته مثل التدقيق، مصلحة الجمهور، والطابع الإخباري، الاستقلالية...الخ. وهو يكتب أيضا لإمتاع جمهوره، وإشراكهم انتقاداته، وأن ينظر إلى جمهوره باعتبارهم مستهلكين في إطار رحلة. كما أنه مسؤول نحو ما ينشره، ونحو رئيس التحرير الذي يشرف على عمله"[44].

ولا بأس أن نورد مقطعا قصيرا من رحلته الصحفية هذه -كمثال- عن الاستطلاع الصحفي الذي تمثّل السرد الرحلي أو أدب الرحلة. يقول في الفصل الأول الموسوم بـ«الصراع على الحروف» حول آسيا الوسطى: "عندما قدمت نفسي كصحافي من الشرق الأوسط، من دون أن أحدد من أي بلد من بلدانه أنا، ظنا مني أن في التعميم فائدة تقيني متاعب الشرح الطويل لتفاصيل كلانا في غنى عنها في ذينك الزمان والمكان، ابتسم محدثي فيروز أشرفي مدير الثقافة والتراث في أوزبكستان وقال: وأنا من الشرق الأوسط أيضا. وقبل أن يتلمس حيرتي من جوابه أضاف قائلا: لقد كبرت منطقتنا خلال سنة واحدة وتغير مفهوم المصطلح الذي استعملته الآن، وعلى الأقل بالنسبة إلينا نحن سكان آسيا الوسطى الإسلامية... ولما لم يعد هناك داع لمزيد من التعريف بنفسي، تركت لمحدثي أن يسهب في شرح رؤيته. قال: لقد كانت نهاية الحرب الباردة مؤشرا على إعادة تحديد المفهوم الجغرافي لمنطقة الشرق الأوسط كما نعرفها اليوم..."[45].

إن الصحافي –هنا- يستخدم أسلوب السرد بصيغة ضمير المتكلم والحوار القصصي مع محدثه للحصول على المعلومات، كما يصف انطباعه وعاطفته الذاتية بلغة صحفية تنحو إلى الأدبية كما في قوله: (يتلمس حيرتي).

ونشير إلى أنه قد تضاعفت لدى بعض البلدان الغربية مراكز البحث المتخصصة في دراسة السرد الرحلي والميادين المعرفية الأخرى المرتبطة به مثل الصحافة والاثنوجرافيا وغيرهما، ومن ذلك: «مركز البحث في أدب الرحلات» الفرنسي (le Centre de Recherche sur la Littérature de Voyages CRLV)[46] . أما في البلاد العربية، فيكاد يستسلم الكتاب والباحثون إلى معطى انطفاء أدب الرحلة وزواله دون البحث عن تتبع مساراته في معارف وعلوم أخرى في إطار

التكامل المعرفي الإنساني باعتبارأن أدب الرحلة مخزون معرفي وتراث عالمي قدمّ الكثيرللبشرية وأسهم في تطوّرها ورقيّها. وقد اشتهر به العرب كما اشتهر به غيرهم.

خاتمة

خلُصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج المهمة نذكر منها:

- السرد الرحلي أو أدب الرحلة والأسفار لم يندثر كما يعتقد الكثيرمن الباحثين العرب الذين تخلوا عن تلمسه في العلوم والمعارف الأخرى في إطار التكامل المعرفي فيما بين علوم الأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية.

- السرد الرحلي كجنس أدبي موسوعي انشطرت موضوعاته المختلفة وتسلل بعضها إلى أجناس أخرى كالأثنوجرافيا والرواية الأدبية والإعلام.

- السرد الرحلي القديم ذو الموضوعات المتعددة والمتنوعة هو اليوم الاستطلاع الصحفي المكتوب ذو الموضوع الواحد.

- كتاب وصحافيو الاستطلاع الصحفي المكتوب عند بداياته التاريخية هم أنفسهم الكتاب الرحّالة الذين تحولوا من كتابة أدب رحلاتهم إلى كتابة رحلاتهم الصحفية في الجرائد لكي يطلع عليها القراء بعد اختراع المطابع. ومن ثمة تحولت الرحلة الأدبية القديمة إلى الرحلة الصحفية المكتوبة في عصرنا.

-الموضوعات المتعددة التي كانت قديما موجودة في السرد الرحلي القديم تحولت في الاستطلاع الصحفي المكتوب إلى موضوعات أو مجالات متخصصة مثل الاستطلاع السياحي تخص موضوع السياحة، الاستطلاع الثقافي يخص الثقافة، الاستطلاع السياسي يهتم بالسياسة، الاستطلاع الاقتصادي يتناول موضوعا اقتصاديا، الاستطلاع الاجتماعي يعالج قضية اجتماعية...الخ.

- قلة قليلة فقط من الباحثين العرب رفضوا القول بزوال أدب الرحلة، فراحوا يتلمسون إشاراته وملامحه في الرواية الأدبية والأثنوجرافيا والإعلام، ولكن دون دراسات معمقة.

هذا، وتوصي الدراسة بتكثيف الأبحاث والدراسات الأكاديمية حول أدب الرحلة من خلال إنشاء مراكز بحثية متخصصة في الميدان بهدف الكشف عن كنوزه المعرفية الثمينة ومآلاته وعلاقاته مع الحقول المعرفية الأخرى على ضوء المناهج والدراسات الحديثة على غرار ما هو موجود لدى عدة بلدان غربية تتوفر على مراكز متخصصة في هذا المجال.

الهوامش:

[1] مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، ط2 1984، ص17

[2] جبور عبد النور «المعجم الأدبي» دار العلم للملايين. ص.ب 1085 بيروت. آذار/مارس 1979م. ص122

[3] د.محمد حسين فهيم «أدب الرحلة» كتاب مجلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت. العدد . 138 يونيو 1989م. ص13

[4] Bryan PIROLLI, Pluralité et Extension du Journalisme de Voyage, Thèse de doctorat en Sciences de l'information et de la communication, Soutenue le 14 décembre 2015, ED267 Arts et Médias Laboratoire Communications, Information, Médias Université Sorbonne Nouvelle, Paris 3, P51 et 52

[5] ينظر حسني محمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ص.ب 114553. ط2. بيروت، لبنان 1983م. ص11

[6] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث –سياق النص وخطاب الأنساق-، مجلة اللغة والاتصال، مخبر البحث في اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران الجزائر 2014م العدد 16. ص15

[7] ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، شارع عبد الله العربي، الحي السابع، مدينة نصر، القاهرة 2002، ص80 و81

[8] سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة والنشر، 201 شارع كامل صدقي، الفجالة، القاهرة (د.ت) ص88

[9] ساعد ساعد، التحرير الصحفي في الإذاعة والتليفزيون والإنترنت، دار خوازم العلمية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية 2016م، ص156

[10] Nora Berning, Narrative Means to Journalistic Ends, VS Verlag Fur Sozialwisse nschaften, Deutsche National Bibliothek. Germany 2011. P37

[11] Philippe Gaillard, Technique du Journalisme, Presses Universitaires De France 108, Boulevard Saint-Germain, 2eme Edition, Paris 1975.PP 65,69 et70

[12] Ibid P78

[13] Nora Berning, op. cit,. P.37

[14] Voir Reportage, Le Petit Robert de la Langue Française, Dictionnaire français. Edition Electronique.2014. https://www.lerobert.com

[15] Ibid,P55

[16] ينظر مجموعة من الصحفيين، " إمبراطورية السراب قصة احتيال القرن" منشورات الخبر ودار الحكمة الجزائر 2007

[17] نوّارة لحرش «أدب الرحلة هُمّش في الجزائر رغم قيمته الكبيرة»، استطلاع صحفي في موضوع الرحلة. نشر بيومية النصر 20 تموز/يوليو 2015م . تاريخ الاطلاع: 8 سبتمبر 2019م

https://www.annasronline.com/index.php?option=com_content&view=article&id=16385

[18] المرجع نفسه

[19] المرجع نفسه

[20] فؤاد قنديل « أدب الرحلة في التراث العربي». مكتبة الدار العربية للكتاب. شارع عبد الله العربي- الحي السابع. مدينة نصر ص.ب 7584 القاهرة. يوليو 2002م.

[21] محمد حسين فهيم. « أدب الرحلة» ص43 و44

[22] المرجع نفسه، ص62 و63

[23] سعيد يقطين، أدب الرحلة العربي الحديث؟، صحيفة القدس العربي، النسخة الإلكترونية، 19 نوفمبر 2019 المعاينة:2020.07.02

https://www.alquds.co.uk/أدب-الرحلة-العربي-الحديث؟/

[24] المرجع نفسه.

[25] Mohammed Amine El Iraqi, Récit littéraire et récit journalistique dans la littérature de voyage : réflexion sur les écrits de F. R. de Chateaubriand, Revue Langues, Cultures et Sociétés, Volume 4, n° 1, juin 2018, Laboratoire Langage et Société - URAC56, Université Ibn Tofail – Kénitra. Maroc P45

[26] ينظر إبراهيم الطائي، عناصر القصة القصيرة وتطبيقاتها في القصة الصحفية- القصص الصحفية الفلسطينية أنموذجا- ، دراسة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. الجامعة العراقية 2012م. ص 21 و22

[27] Mohammed Amine El Iraqi, op. cit., PP. 45,46

[28] Nora Berning, op. cit., P.37

[29] Mohammed Amine El Iraqi P.45

[30] Nora Berning, op. cit., P37

[31] دوج أندروود « الصحافة والرواية» ترجمة مصطفى محمود. مجلة المركز القومي للترجمة. العدد 2247. شارع الجبلاية بالأوبرا –الجيزة القاهرة 2015م. ص 18

[32] ينظر دوج أندروود « الصحافة والرواية» - ملحق شخصيات الأدباء الصحفيين –كتاباتهم ومناصبهم الصحفية. الصفحات من293 إلى 329

[33] محمد القاضي وآخرون. « معجم السرديات» دار محمد علي للنشر. تونس ط1، 2010م ص249

[34] نوّارة لحرش «أدب الرحلة هُمّش في الجزائر رغم قيمته الكبيرة»، ريبورتاج صحفي في موضوع الرحلة يومية النصر الجزائرية. تاريخ النشر: 20 تموز/يوليو 2015. تاريخ الاطلاع: 2019.11.30
https://www.annasronline.com/index.php?option=com_content&view=article&id=16385

[35] عيسى بخيتي، أدب الرحلة الجزائري الحديث –سياق النص وخطاب الأنساق-، مجلة اللغة والاتصال، المرجع السابق، ص5

[36] نور نعيم يونس السويكري، القصة الخبرية وتطبيقاتها في الصحافة الفلسطينية، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية غزة، رقم ج س غ/35/ بتاريخ 2015/09/22م

[37] فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، المرجع السابق، ص 19

[38] ينظر المرجع نفسه، ص 20

[39] المرجع نفسه، ص 21

[40] المرجع نفسه ص 23

[41] Alain lallemand, Journalisme narratif en pratique,Edtions de Boeck, Rue des Minimes 39,B-1000 Bruxelles, Belgique 2011,P28

[42] السيد نجم، أدب الربورتاج.. أين؟ مقال المجلة الثقافية الجزائرية الالكترونية 2007.07.21 تاريخ المعاينة: 20.10.2019
https://thakafamag.com/?p=141

[43] رياض نجيب الريّس ، صحافي ومدينتان رحلة إلى سمرقند وزنجبار، رياض الريس للكتب والنشر. بيروت لبنان1997م. ص 13 و14

[44] Bryan Pirolli, Pluralité et Extension du Journalisme de Voyage de Voyage-Nouveau Acteurs, Nouvelles Pratiques, Nouvelles Attentes, Thèse de doctorat en Sciences de l'information et de la communication, Soutenue le 14 décembre 2015, ED267 Arts et Médias Laboratoire Communications, Information, Médias Université Sorbonne Nouvelle-Paris3

[45] رياض نجيب الريّس ، صحافي ومدينتان رحلة إلى سمرقند وزنجبار، المرجع السابق، ص 21 و22

[46] Le Centre de Recherche sur la Littérature des Voyages (CRLV) a été fondé en 1984 par François Moureau, professeur de littérature française du XVIIIe siècle (université Paris IV) et directeur des Presses de l'Université Paris-Sorbonne (PUPS).

http://www.crlv.org/content/le-centre-de-recherche-sur-la-littérature-des-voyages-crlv

المراجع:

1. إبراهيم الطائي، (2012)، عناصر القصة القصيرة وتطبيقاتها في القصة الصحفية- القصص الصحفية الفلسطينية أنموذجا-، دراسة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها. الجامعة العراقية.
2. السيد نجم،2007.07.21)،أدب الربورتاج.. أين؟ مقال المجلة الثقافية الجزائرية الالكترونية، تاريخ المعاينة: 20.10.2019 https://thakafamag.com/?p=141
3. جبور عبد النور «المعجم الأدبي، (1979) » دار العلم للملايين. ص.ب 1085 بيروت. آذار/مارس.
4. حسني محمد حسين،(1983) ، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ص.ب 114553. ط2. بيروت، لبنان.

دوج أندروود، (2010) « الصحافة والرواية» ترجمة مصطفى محمود. مجلة المركز القومي للترجمة. العدد 2247. شارع الجبلاية. بالأوبرا –الجيزة القاهرة

5. رياض نجيب الريّس،(1987) ،صحافي ومدينتان رحلة إلى سمرقند وزنجبار، رياض الريس للكتب والنشر. بيروت لبنان
6. سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للطباعة والنشر، 201 شارع كامل صدقي، الفجالة، القاهرة (د.ت)
7. ساعد ساعد، (2016)،التحرير الصحفي في الإذاعة والتليفزيون والإنترنت، دار خوازم العلمية للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية .
8. عيسى بخيتي،(2014)، أدب الرحلة الجزائري الحديث –سياق النص وخطاب الأنساق-، مجلة اللغة والاتصال، مخبر البحث في اللغة العربية والاتصال، جامعة وهران الجزائر .
9. فؤاد قنديل (2002) ، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، شارع عبد الله العربي، الحي السابع، مدينة نصر، القاهرة .
10. مجدي وهبة وكامل المهندس، (1984)، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، ط2 .
11. محمد القاضي وآخرون. ،(2015)،« معجم السرديات» دار محمد علي للنشر. تونس ط1،
12. محمد حسين فهيم ،(1989)،«أدب الرحلة» كتاب مجلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت. العدد. 138 يونيو .
13. مجموعة من الصحفيين، (2007) ، " إمبراطورية السراب قصة احتيال القرن" منشورات الخبر ودار الحكمة الجزائر نوّارة لحرش، ،(2015) «أدب الرحلة هُمّش في الجزائر رغم قيمته الكبيرة»، استطلاع صحفي في موضوع الرحلة. نشر بيومية النصر 20 تموز/يوليو . تاريخ الاطلاع: 8 سبتمبر 2019م

https://www.annasronline.com/index.php?option=com_content&view=article&id=16385

14. سعيد يقطين،(2019) ، أدب الرحلة العربي الحديث؟، صحيفة القدس العربي، النسخة الإلكترونية، 19 نوفمبر ,المعاينة:2020.07.02 https://www.alquds.co.uk/أدب-الرحلة-العربي-الحديث؟/
15. نور نعيم يونس السويكري، (2015)، القصة الخبرية وتطبيقاتها في الصحافة الفلسطينية، رسالة دكتوراه، الجامعة الإسلامية غزة، رقم ج س غ/35/ بتاريخ 09/22.

1. Alain lallemand, (2011), Journalisme narratif en pratique, Editions de Boeck, Rue des Minimes 39, B-1000 Bruxelles, Belgique
2. Bryan PIROLLI, (2015), Pluralité et Extension du Journalisme de Voyage, Thèse de doctorat en Sciences de l'information et de la communication, Soutenue le 14 décembre, ED267 Arts et Médias Laboratoire Communications, Information, Médias Université Sorbonne Nouvelle, Paris 3

3. Mohammed Amine El Iraqi, (2018), Récit littéraire et récit journalistique dans la littérature de voyage : réflexion sur les écrits de F. R. de Chateaubriand, Revue Langues, Cultures et Sociétés, Volume 4, n° 1, Laboratoire Langage et Société - URAC56, Université Ibn Tofail – Kénitra. Maroc P45 http://www.crlv.org/content/le-centre-de-recherche-sur-la-littérature-des-voyages-crlv
4. Nora Berning, (2011), Narrative Means to Journalistic Ends, VS Verlag Fur Sozialwisse nschaften, Deutsche National Bibliothek. Germany.
5. Philippe Gaillard, (1975), Technique du Journalisme, Presses Universitaires De France 108, Boulevard Saint-Germain, 2eme Edition, Paris.
6. Reportage, Le Petit Robert de la Langue Française, Dictionnaire français. Edition Electronique.2014. https://www.lerobert.com

لنقتبس من المؤلف:

قعيد، خليفة، «السرد الرحلي: من أدب الرحلة إلى الاستطلاع الصحفي»، المجلد07 ، الرقم01 ، ص ص250-270، https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/4801